المحاضرة الثانية

الفكر السياسي عند السفسطائيين

توطئة:

برزت الحركة السفسطائية في اليونان القديمة خلال القرن الخامس قبل الميلاد، حيث عُرف السفسطائيون بأسلوبهم الجدلي وتعليمهم لفن الخطابة والمنطق والحجاج. كما كان لهم التأثير الكبير في المجال الفلسفي والسياسي وحتى الاجتماعي في حياة اليونانيين إذ ساهموا في تشكيل الأفكار المتعلقة بالحكم والسلطة والقانون. تميز السفسطائيون بطرحهم نظريات نسبية حول الأخلاق والسياسة، ما جعلهم محل نقد من قبل الفلاسفة التقليديين وعلى رأسهم سقراط وأفلاطون.

1- التعريف بالمدرسة السفسطائية:

المدرسة السفسطائية (السفسطائيون) كانت حركة فلسفية ازدهرت في اليونان القديمة خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. كان السفسطائيون مجموعة من المعلمين المتجولين الذين ركزوا على تعليم فن الخطابة والجدل، مستخدمين استدلالات عقلية معقدة لإقناع الآخرين. كانوا يشتهرون بتحكمهم الكبير في البلاغة والتلاعب بالحجج، مما جعلهم مؤثرين في المجال الفكري والسياسي والاجتماعي. أما أهم أعلام السفسطائية فهم:

أ- **بروتاغوراس (حوالي 490-420 ق.م):** أشهر مقولاته: "الإنسان هو مقياس كل شيء"، مما يعني أن الحقيقة نسبية وتختلف من شخص لآخر أي أنه ركز على نسبية المعرفة والشك في إمكانية الوصول إلى الحقيقة المطلقة.

ب- **جورجياس (حوالي 485-380 ق.م)**: كان بارعًا في فن الخطابة ورده على الفلسفة الإيلية، يمكن تلخيص فلسفته في ثلاث جزئيات رئيسة وهي أن "لا شيء موجود، وإن وُجد فلا يمكن معرفته، وإن عُرف فلا يمكن نقله للآخرين."

ت- **هيبياس (حوالي 460-400 ق.م)**: اهتم بالرياضيات والفلسفة، وكان يدعو إلى ضرورة إتقان الفنون المختلفة، واعتبر أن القانون الطبيعي أهم من القوانين الوضعية.

ث- **بروديكوس (حوالي 465-395 ق.م)**: ركّز على دراسة اللغة واهتم فيها بكشف المغاني الحقيقية للكلمات فكان من أوائل المهتمين بعلم الدلالات اللغوية.

أما أهم أفكار الفكر السفسطائي فيمكن حصرها فيما يلي:

- **النسبية المعرفية** :الحقيقة ليست ثابتة بل تتغير حسب وجهة نظر كل فرد.
- **الشك في المعرفة المطلقة** :لا يمكن الحديث عن الحقيقة المطلقة وإن وجدت فلا سبيل لإدراكها.
- **أهمية الخطابة والبلاغة** :كان السفسطائيون يرون أن الإقناع أهم من الحقيقة ذاتها.
- **القانون الطبيعي مقابل القانون الوضعي**: ميّزوا بين القوانين التي تفرضها الطبيعة وتلك التي يضعها المجتمع، منتقدين هذه الأخيرة باعتبارها غير عادلة.
- **الإنسان مركز المعرفة** :جعلوا من الإنسان هو المرجع الأساسي في تحديد ما هو صحيح أو خاطئ.

2- أصول الفكر السياسي عند السفسطائيين:

نشأ الفكر السياسي السفسطائي في ظل تحولات اجتماعية وسياسية كبرى في بلاد اليونان عموما وأثينا على وجه الخصوص، حيث انتقلت هذه الأخيرة من نظام الحكم الأرستقراطي إلى النظام الديمقراطي. في هذا السياق، ظهرت السفسطائية كفكر وكحركة ثقافية من خلال معلمين يجادلون في قضايا السلطة والعدالة والقانون، مقدمين وجهات نظر تتسم بالنسبية والتشكيك في المفاهيم المطلقة.

3- أهم الأفكار السياسية السفسطائية:

أ- **النسبية في العدالة والقانون** :اعتقد السفسطائيون أن العدالة ليست مفهومًا مطلقًا، بل تتغير تبعًا للزمان والمكان والمجتمع. فقد رأوا أن القوانين وضعية، أي أنها تُسنّ بناءً على مصالح الحكام والشعوب، وليست مستمدة من طبيعة ثابتة.

ب- **المنفعة كأساس للسياسة** :أكد السفسطائيون على أن الحكم يقوم على تحقيق المنفعة، سواء كانت للفرد أو للدولة. وهذا يتماشى مع فلسفتهم النفعية التي رأت أن الإنسان يسعى لتحقيق مصالحه الشخصية، وأن السلطة يجب أن تُمارَس بناءً على ما يخدم المجتمع عمليًا.

ت- **القدرة على الإقناع وأهمية الخطابة شرط السياسي:** كان السفسطائيون يرون أن النجاح السياسي لا يعتمد على الحكمة أو الفضيلة بل على القدرة على الإقناع ولهذا ركزوا على تعليم الخطابة وفنون الجدل والحجاج مما جعلهم مؤثرين في المجال السياسي حيث أصبح السياسي الناجح هو من يستطيع التأثير في الجمهور وإقناعه.

ث- **التمييز بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي** :قدم بعض السفسطائيين مثل بروتاغوراس وهِبياس تمييزًا بين القانون الطبيعي (القوانين التي تحكم العالم بشكل مستقل عن الإنسان) والقانون الوضعي (القوانين التي يصنعها البشر). كانوا يرون أن العديد من القوانين الوضعية تخدم الطبقات الحاكمة بدلاً من تحقيق العدالة الحقيقية وفي ذلك تنكشف بوادر التناقض في الفلسفة السفسطائية حيث أنهم من جهة يرون أن قوانين البشر ظالمة وينحازون إلى قوانين الطبيعة ومن جهة أخرى كما سلف الذكر يرجحون فكرة النسبي على فكرة المطلق وفكرة الإنسان مقياس كل شيء.

4- نقد الفكر السياسي السفسطائي:

تعرض السفسطائيون لنقد شديد من قبل سقراط وأفلاطون وأرسطو. اعتبر أفلاطون أن السفسطائيين يضللون الناس عن طريق اللغة والحجاج المليء بالأغاليط، وأنهم يروجون للشك والعدمية الأخلاقية مما قد يؤدي إلى الفوضى السياسية. أما أرسطو فقد انتقد رؤيتهم النسبية للعدالة، معتبرًا أن هناك مبادئ ثابتة يجب أن تحكم المجتمعات.

خلاصة:

ساهم السفسطائيون في تطور الفكر السياسي من خلال تقديم رؤية جديدة حول العدالة والقانون والسلطة ونظام الحكم ورغم أنهم تعرضوا لانتقادات حادة من الفلاسفة الكلاسيكيين فإن أفكارهم حول النسبية والتأثير السياسي عبر الخطابة لا تزال تفرض نفسها حتى اليوم في الأوساط السياسية والفكرية حيث يمكن ملاحظة تأثيرها في الفلسفات السياسية الحديثة التي تركز على الدور العملي للسلطة والتفاوض في المجتمعات الديمقراطية.

أهم المراجع ذات الصلة:

- يوسف كرم، "تاريخ الفلسفة اليونانية"، دار المعارف، 1955.
- محمد عبد الرحمن مرحبا، "الفكر الفلسفي عند اليونان"، دار النهضة العربية، 1982.
- إمام عبد الفتاح إمام، "مدخل إلى الفلسفة السياسية"، دار التنوير، 1994.
- عبد الرحمن بدوي، "الفلسفة اليونانية من منظور شرقي"، دار الفكر العربي، 1973.
- محمد عزيز الحبابي، "مفاهيم سياسية في الفلسفة اليونانية"، المركز الثقافي العربي، 2001.